

الوصمة الاجتماعية للصحة النفسية وتأثيرها على طلب المساعدة في السياق السوري

المقدمة:

السيدات والسادة، الزملاء الأفاضل، نلتقي اليوم لنناقش قضية بالغة الأهمية تمس عمق العمل الإنساني والصحي في سوريا؛ وهي "الوصمة الاجتماعية" المرتبطة بالمرض النفسي، وكيف تحولت إلى جدار غير مرئي يعوق السوريين عن الوصول إلى حقهم في الرعاية والتعافي.

نص الكلمة:

الحضور الكريم،

في البيئات التي عانت من الحروب والأزمات الممتدة، غالباً ما تتجه الأنظار والمساعدات نحو الجراح الجسدية الظاهرة، بينما تُغفل الجراح النفسية الخفية التي لا تقل خطورة وتأثيراً على حياة الأفراد واستقرار المجتمعات. إن الحديث عن الرعاية النفسية ليس من باب الرفاهية، بل هو قضية تمس كرامة الإنسان وحقه الأساسي في العيش السليم.

لقد واجه المجتمع السوري على مدار سنوات طويلة صدمات متلاحقة ومتراكمة، شملت فقدان الأحبة، والنزوح القسري، والضغط المعيشية القاسية، مما أدى إلى ظهور أزمة صحة نفسية مركبة تتجلى في الارتفاع الحاد بمعدلات الإصابة باضطراب ما بعد الصدمة، والاكتئاب، وحالات القلق الحاد. ومع ذلك، تضعنا الأرقام أمام واقع صادم؛ إذ تشير تقديرات منظمة الصحة العالمية إلى أن الفجوة العلاجية في مناطق النزاع تتجاوز (85%). هذا يعني أن الغالبية العظمى ممن يحتاجون للدعم يعانون خلف الأبواب المغلقة دون التجرؤ على طلب الاستشارة المهنية، ليس لندرة مراكز العلاج فحسب، بل بفعل "الوصمة الاجتماعية" التي تحولت إلى أداة إقصاء تدفع الشخص إلى إنكار مرضه خوفاً من أحكام المجتمع ونظرته الجارحة.

إن كسر هذا الطوق يتطلب منا تفكيك بنية هذه الوصمة في الثقافة المحلية، حيث تكتسب أبعاداً شديدة الحساسية ترتبط ببنية المجتمع الحريص على الروابط الأسرية؛ وهنا تبرز "وصمة السمعة العائلية" كأحد أصعب العوائق. فالمرض النفسي في الموروث الشعبي لا يُنظر إليه كعارض صحي فردي، بل يُفسر غالباً كدليل على خلل جيني أو نقص تربوي يعيب الأسرة بأكملها، ويمتد هذا الأثر السلبي ليمس بشكل مباشر "قرص الزواج والمصاهرة" للأشقاء والأقارب. هذا الخوف على السمعة يدفع العائلات إلى ممارسة ضغوط هائلة لإخفاء المريض وتكتم معاناته حماية للمركز الاجتماعي للأسرة.

علاوة على ذلك، يتقاطع هذا الوضع مع غياب الوعي بالمصطلحات النفسية؛ فالإدراك الشعبي يميل إلى اختزال الاضطرابات المتنوعة—كالقلق أو الوسواس أو تقلبات المزاج—في قالب لغوي واصم واحد وهو "الجنون". هذا الخلط يثير الرعب في نفس المريض ويمنعه من الاقتراب من العيادات تجنباً لإطلاق هذا الحكم المقترن عُرفاً بفقدان الأهلية والقدرة على التفكير الفعال.

وفي محاولة للهروب من هذا العبء، يلجأ الكثير من المرضى في سوريا إلى "جسدنة الألم". أي أنهم يعبرون عن ضيقهم النفسي من خلال شكاوى جسدية ملموسة ومقبولة اجتماعياً، مثل الصداع المزمن، أو آلام القولون، والوهن العام. تمنح هذه الحيلة الدفاعية المريض الشرعية الكاملة للحصول على الرعاية والتعاطف، دون المخاطرة بالتعرض للتصنيف الأخلاقي أو الفكري المرتبط بالاعتلال النفسي.

تزداد هذه الديناميكيات خطورة عند التطلع إلى واقع الحرب والنزوح. ففي مخيمات اللجوء والنزوح، حيث تعيش العائلات في خيام متلاصقة تنعدم فيها الخصوصية الفردية تماماً، يصبح فعل مراجعة عيادة الدعم النفسي المتنقلة مكشوفاً وعلنياً أمام الجميع. هذا الانكشاف يضاعف الخوف من الوصمة، ويجبر الناس على تجنب التدخل المبكر، مما يحول الحالات البسيطة إلى اضطرابات مزمنة ومعقدة. وإذا اضطر الفرد للعلاج، فإنه يبذل جهوداً مضنية لزيارة عيادات غير مألوفة في مناطق بعيدة، أو يقطع العلاج فجأة خوفاً من اكتشاف العقاقير. يتزامن ذلك كله مع تدهور اقتصادي حاد يضطر الأسر لتوجيه مواردها المحدودة نحو البقاء البيولوجي اليومي، لتتراجع أولوية العلاج النفسي بفعل الفقر والوصمة معاً.

إن تفكيك هذا الجدار يتطلب استراتيجيات عملية قائمة على خطوات تخصصية واضحة ومبنية على أدلة:

- دمج خدمات الصحة النفسية في مراكز الرعاية الأولية: ليتلقى المريض علاجه تحت غطاء عيادات باطنية أو نسائية عامة، مما يحميه تماماً من المراقبة ونظرات المجتمع.
- تفعيل شبكات التأثير المحلي ورجال الدين: عبر تزويدهم بالحقائق العلمية لإدماجها في الخطاب العام، والتأكيد على أن التداوي النفسي ضرورة إنسانية وواجب لا يتعارض مطلقاً مع الإيمان.
- التوعية القائمة على الاتصال المباشر: من خلال تشجيع وتمكين المتعافين من مشاركة تجاربهم الإيجابية، وهي الأداة الأكثر نجاحاً في كسر الصور النمطية والمواقف السلبية.

الخاتمة:

إن الوصمة الاجتماعية ليست مجرد انطباع عابر، بل هي عائق بنيوي وصحي حاسم يسهم في إطالة أمد المعاناة في مجتمع سوري أثقلته الأزمات. إن تعزيز إقبال الناس على طلب المساعدة

لن يتحقق بتوسيع الخدمات فحسب، بل ببناء بيئة حاضنة ومؤسسية تضمن لكل شخص حقه في العلاج والتعافي بكرامة، ودون خوف من إقصاء أو تمييز.

شكراً لكم.